الدكتور حسن باشا محمود

والتعليم المجاني

بين اهرام الجيزة وحديقتها في نحو منتصف الطريق قرية صغيرة من قرى الفلاحين تسمّى الطالبيّة ينتبه لها الذاهبون الى الاهرام في هذه الايام لانهم يرون امامها بيتين كبيرين على يمين الطريق وعلى يسارهِ بناهما اثنان من اهل القرية وبيتاً ثالثاً بناهُ احد قضاة مصر. والبيتان الاولان كالقصور الفخيمة بالنسبة الى سائر بيوت الطالبيّة او كالذهب بالنسبة الى الخزف. يرى الناظر اليهما شذوذاً في سنّة الارتقاء التدريجي لانهما ماثلا القرى بيوت القاهرة ولا سلسلة اتصال بينهما وبين غيرهما من بيوت القرية. وهذا الشذوذ كثير في الدنيا يقع في الحيوان والنبات كما يقع في مصنوعات الناس وقد اطلقنا عليهِ اسم الارتقاء المجاني

الرجلان اللذان بنيا البيتين المذكورين آنفاً من عائلة مصرية او عربية مصرية تسمّى عائلة شلتوت نشأ منها منذ نحو مئتين سنة ولدٌ كان مثل سائر اولاد قريتهِ يلعب بالطين ويتبع والديهِ الى "الغيط" يسوق الماشية او يحشُّ لها البرسيم. ثم ارتقى ارتقاء لا مثيل لهُ في قريتهِ حتى صار من عظماء مصر ومن اهل الوجاهة فيها ورأس مدرستها الطبية ومصلحتها الصحية وناب عنها في المؤتمرات الاوربيّة مراراً وصاحَ ملوك اوربا مع غيرهِ من نواب الممالك العظيمة

هذا هو صاحب الترجمة الدكتور حسن باشا محمود الطبيب المشهور صاحب التآليف الكثيرة والمقالات العديدة. وقد استأثرت بهِ رحمة ربهِ في الثامن عشر من شهر يناير الماضي وعمرهُ تسع وخمسون سنة

ولد في قرية الطالبية كما تقدم وتعلّم فيها مبادئ القراءة والكتابة وادخلهُ والدهُ المدرسة الحربية التي كانت في العباسية. ولم يتّصل بنا كيف اقدم ابوهُ على ذلك مع ان جمهور المصريين كانوا يرجسون شرًّا من المدارس الحربية والى الآن قلما يرغبون فيها مع تغيُّر الاحوال والآراء. ولم تطل اقامتهُ في تلك المدرسة لانها أُلغيت فانتقل الى مدرسة قصر العيني وتعلّم علومها الطبيّة مع اللغة الفرنسوية

وسنة ١٨٦٣ اختارت الحكومة المصرية عشرة من تلامذة مدرسة الطب وارسلتهم الى المانيا لتحتوا علم الطب فيها وكان صاحب الترجمة منهم. وهذا من خير الاعمال التي كانت

الدكتور حسن باشا محمود

الحكومة المصرية تعهدها . ولو قام التلامذة الذين كانت ترسلهم الى اوربا بما يجب عليهم لبلادهم لسبقت مصر اليابان وكانت حالها غير ما هي عليهِ الآن

ولا ندري كيف كانت تختار التلامذة وباي وجه كانت تتفضل بعضهم على بعض . ولكن العارفين يؤكدون لنا انهُ كان للصيغة (المحسوبيَّة) الشأن الاكبر في اختيار الذين يرسلون الى اوربا فلا يختار اذكى التلامذة واكثرهم اجتهاداً وان صحَّ ذلك فلا يكون صاحب الترجمة ابن الطالبيَّة من الذين اختيروا لوجاهة قومهم ولا بدَّ من ان اجتهادهُ شفع بهِ حتى فُضِّل على غيرهِ وأُرسل الى حيث يتلقَّى العلم مجاناً وتدفع اليهِ نفقاتهُ بسخاء حاتمي اضرَّ باكثر التلامذة المصريين لان الجدَّة اضرَّت بالشاب من كل شيء آخر ولا سيما اذا كان في عاصمة مملكة اوربيَّة حيث تكثر الملاهي واسباب الاسراف والفساد

واقامت " الاوسالية " التي كان صاحب الترجمة منها في مدينة مونخ لتعلم اللغة الالمانية ويقال ان مديرها اساء ادارتها فنُقلت من هناك الى باريس فالفن صاحب الترجمة اللغة الفرنسوية وتخرَّج في العلوم الطبيَّة ونال الدبلوما سنة ١٨٦٨ وبقي سنتين يطبق العلم على العمل ثم عاد الى القطر المصري وجُعل استاذاً ثانياً لعلم التشريح في مدرسة قصر العيني وجُعل راتبهُ ٦٠٠ جنيه في السنة اي مضاعف راتب الاستاذ في مدرسة بيروت الطبيَّة . وبعد قليل أُنعم عليهِ برتبة صاغ وزيد راتبهُ الى ١٢٠٠ جنيه في السنة وأُعطي خمسين فدانا من الاراضي وكان ذلك سنة ١٨٧١ وجعل مدرساً لعلم قانون الصحة ثم للفسيولوجيا والامراض الباطنة . ثم للامراض الجلدية

ولقد كان كبير الهمة كثير الاجتهاد راغباً في اتساع الشهرة بدليل انتظامهِ في كثير من الجمعيات الطبيَّة فقد انتظم عضواً في جمعية المستشرقين بباريس سنة ١٨٦٧ وفي الجمعية الافريقية ببلاد الجزائر سنة ١٨٦٩ وفي الاكادمي الطبيَّة ببلاد برازيل سنة ١٨٧٥ وفي معرض ڤينا سنة ١٨٧٣ وفي المؤتمر الطبي فيها وجُعل مندوباً في مؤتمر برلين الطبي سنة ١٨٩٠ وفي مؤتمر رومية الطبي سنة ١٨٩٣ ورئيساً للقسم المصري في المؤتمر الطبي الدولي الذي عقد بباريس سنة ١٩٠٠ وفي المؤتمر الطبي الدولي الذي عقد بلسبون عاصمة البرتغال

ومعلوم ان الانتظام في عضوية المجامع العلمية امر سهل على مَن يدفع الرواتب المقررة لتلك المجامع لانهُ اذا انتظم في مجمع واحد منها وذكر اسمهُ بين اعضائها تصير الدعوات تأتيهِ من مجمع بعد مجمع وغاية ما يطلب منهُ قبولها ودفع المرتب السنوي لها فيصير عضواً فيها

وقد تقلب في مناصب كثيرة فعيِّن مندوباً للصحَّة في جدَّة ثم طبيباً لدائرة البرنس طوسن

باشا ثم في دائرة توفيق باشا الخديوي السابق حينما كان ولياً للعهد . وعينهُ الخديوي الاسبق اسمعيل باشا طبيباً لخاصَّة الخديويَّة قبل تنازل عن الخديويَّة ثم عيَّن مفتشاً للصحَّة في القاهرة فسنَّ لها لوائح لم تزل مرعيَّة الى الآن ويقال انهُ هو اول من وضع تذكرة الولادة في الديار المصرية . ونقل بيمارستان المجانين (المجاذيب) من بولاق الى العباسية واراد ايضاً ان ينقل اليها مستشفى قصر العيني لكن المرض لم تساعدهُ

وقسمت ادارة الصحَّة الى قسمين قسم داخلي عرف بمجلس الصحَّة العمومية وقسم خارجي عُرف بمجلس الصحَّة البحرية والكورنتينات وعين صاحب الترجمة مديراً لهذا المجلس في الاسكندرية وذلك سنة ١٨٨١ فنظَّمهُ وحرَّر اللوائح اللازمة لهُ فصدَّق عليها اعضاء المجلس المندوبون عن الدول الاوربية وكافأهُ الخديوي على تلك الاعمال بالنشان المجيدي الثالث . وظهر الطاعون تلك السنة في بلاد بين النهرين والكوليرا في بلاد الحجاز لكن مجلس الصحة البحرية والكورنتينات شدَّد المراقبة فوق القطر من هذين الوبائين فكافأ الخديوي صاحب الترجمة برتبة المِيرميران ولقب باشا . ثم جُعل مديراً لعموم الصحَّة واقام في هذا المنصب نصف سنة وجُعل بعد ذلك ناظراً للمدرسة الطبية وطبيباً للامراض الباطنية في مستشفاها فأنشأ بستاناً للنباتات الطبية وبنى مكتباً للمرضات الانكليزيات وجمع معرضاً للنباتات المصرية والعقاقير الطبية واقام في رئاسة المدرسة من اواسط سنة ١٨٨٩ الى اواخر سنة ١٨٩١ وعين وهو فيها عضواً في مجلس المعارف الاعلى وعضواً في جمعية المعارف العمومية المصرية

وسعى في انشاء جمعية طبية مصرية مؤلفة من الاطباء الوطنيين والاوربيين فتألَّفت ودامت مدة ثم لم نعد نسمع عنها شيئاً

عرفنا صاحب الترجمة منذ عشرين سنة فرأينا منهُ رجلاً دمث الاخلاق لين العريكة بعيداً عن الدعوى محبَّاً لصناعته راغباً في نفع الناس بها تسهل عليهِ معاشرة الذين جاروا التمدن الاوربي في بيوتهم كأنهُ وُلد وتربَّى في عائلة اوربية . يفعل ذلك من غير تكلُّف فيجتمع حولهُ اولاد البيت من صبيان وبنات كأنهُ من ذوي قرباهم الذين يأنسون بمعاشرتهم لما يرونهُ في وجوههِ من البشاشة والانس وفي حديثهِ من الفكاهة واللطف . ولم نكن نعلم انهُ ولد وتربَّى في قرية من قرى الفلاحين اما الآن وقد علمنا ذلك فزدنا اكراماً لهُ وزادت ثقتنا بالنجاح الا اذا كان صاحب الترجمة من النوادر الذين لا يبقى عليهم حكم

وكان كثير الاشتغال فالَّف المقتطف مقالات كثيرة منذ عشرين سنة الى حين وفاتهِ وألَّف كتباً ورسائل شتى كما سيجيء . ولم يكن يحسن الكتابة الصحيحة في العربية وهذا كان

شأن استاذه الدكتور سالم باشا سالم. والرجلان كانا يعتمدان على بعض المشايخ لتصحيح كتابتهما العربية فيضيع معناها المقصود احياناً. ولو اتقنا درس العربية حتى صارا يكتبان بها كتابة صحيحة لزاد نفعهما لبلادهما اضعافاً مضاعفة. و يستنتج من سيرة صاحب الترجمة امران يسترجبان النظر والاعتبار. الاول ان ابناء الفلاحين الذين ولدوا في اكواخ الطين ينبغ منهم احياناً شبان يفوقون اولاد الامراء الذين ولدوا في النعمة والرخاء. واذا ساويتا بين هؤلاء واولئك وقدمنا لهم جميعاً وسائط التعليم والتهذيب على حد سوى فقد يفوق اولادُ الفلاحين اولادَ الامراء وينفعون بلادهم اكثر منهم. وما اولادنا الا اولاد الامة فعلى الامة ان تنظر اليهم بعين واحدة وتبعث عمن فيهِ استعداد فطري للتقدم في العلوم والفنون وتسهل عليهِ اكتسابها بكل واسطة ممكنة فان كان والداهُ يستطيعان الانفاق على تعليمهِ فبهِ والا وجب على الامة ان تنفق عليهِ

ويراد بالامة هنا الحكومة لانها هي التي اخذت النيابة عن الامة وجمعت منها الاموال لتنفقها على كل ما منهُ نفع عام. ورب معترض يقول ان الحكومة لا تستطيع ان تعلم كل ابناء الامة تعليماً عالياً لانها ان فعلت ذلك تترك ابناء البلاد الزراعة والصناعة وسائر الاعمال البدية وطلبوا الانتظام في خدمتها او الاقتصار على الاعمال الكتابية وان هي اقتصرت على اختيار العدد القليل من الابناء وعلمتهم دون سواهم جرى الاختيار على مقتضى الصنيعة (المحسوبية) فلم يكن منهُ فائدة كما حدث في هذا القطر بعد ان صار الناس يرغبون في تعليم ابنائهم ولم يعودوا يوجسون من الحكومة شرًّا. وهذا كلهُ صحيح ولكن ليس من الحكمة ترك العمل الواجب النافع اذا ساء استعمالهُ. فلا تعليم كل الابناء تعليماً عالياً مطلوب ولا الاعتماد على الصنيعة واجب الاتباع بل تستطيع الحكومة ان تقيم لجنة من رجالها الذين تثق بهم لامتحان تلامذة الكتاتيب واختيار عدد قليل من المجيهم وتعليمهم في المدارس الابتدائية مجاناً وان تشيء نحو مئة تلمذية (Scholarship) في المدارس الثانوية والعالية ينالها التلامذة النجباء بالامتحان كما هي الحال في اكثر الممالك الاوربية والاميركية فلا يبقى باب للصنيعة ولا يعطى التعليم العالي المجاني غير اهلهِ ولا تخسر البلاد نفع الذين يمكن ان ينفعوها من ابنائها الفقراء اذا علمتهم مجاناً ولا يكون عدد المتعلمين اكثر من حاجة البلاد. فتحصل المنافع المطلوبة من التعليم العالي وتجتنب المضار

الامر الثاني ان المتعلم منا لا يستطيع ان يفيد بلادهُ بعلمهِ كل الفائدة المطلوبة منهُ ما لم يكن مالكاً ناصية اللغة العربية يستطيع الانشاء فيها بسهولة. فيجب ان يكون حسن

الانشاء باللغة العربية وان يكون حسن الانشاء بها شرطاً لازماً في قبول التلامذة المجانيين في المدارس العالية

وقد نشر صاحب الترجمة من المؤلفات ما يأتي وبعضها ترجمة ترجمة او لخّصهُ تلخيصاً

(١) كتاب في داء الفقاع باللغة الفرنسوية طبعهُ في باريس سنة ١٨٦٩ اتى فيهِ على تاريخ هذا الداء من اول ورودهِ في كتب اطباء اليونان والشرق كبقراط وجالينوس والزاري الى هذه الايام وقال فيهِ ان ديوسقوريدس والرازي وصفا الرقبقيات للامراض الجلدية قبل الاطباء الاوربيين بثلاث من السنين

(٢) كتاب الفوائد الطبية في الامراض الجلدية بالعربية طبع في القاهرة سنة ١٨٧٥ هذا فيهِ حضو معلو هردي وفيهِ عدا ما يلزم للاطباء كثير مما يرغب العامة في معرفة سببهِ وعلاجهِ كالحزاز والقش والمسامير والقرون والحكة والجرب والدمّل المصري وحبّة حلب

(٣) كتاب في البواسير ومعالجتها طبع في القاهرة سنة ١٨٧٧

(٤) كتاب تحفة السامع والقاري في داء الطاعون البقري الساري طبع سنة ١٨٨٣

(٥) كتاب الخلاصة الطبية في الامراض الباطنية طبع سنة ١٨٩٢

(٦) رسالة في حمامات حلوان طبعت سنة ١٨٧٦

(٧) رسالة في حمى الدنج " " ١٨٨١

(٨) " في الميضة الكوليرا " " ١٨٨٤

(٩) " " النزلة الواغدة " " ١٨٩١

ولهُ مقالات كثيرة في المقتطف منها مقالة مسهبة في النباتات المصرية واستعمالها طبًّا نشرت في المجلد العاشر والحادي عشر من المقتطف. والزراعة في وادي النيل نشرت في المجلد العاشر. والحشيش نشرت في المجلد الحادي عشر. وحمى الدنج نشرت في المجلد الثاني عشر والتبغ نشرت في المجلد الثاني عشر ايضاً. والتعليق والدمل المصري في المجلد الثالث عشر. والمنطقية في المجلد الرابع عشر. والحقن بالمواد العضوية وعدوى الذباب ولبن المرضع والاعتناء بالبنات والسلل الاهتزازي في المجلد السابع عشر. والتراخوما والاسهال والدنشيريا والطب القديم في المجلد التاسع عشر. والسل في المجلد العشرين. والليمون في المجلد الحادي والعشرين ولهُ مقالات اخرى في غير المقتطف من المجلات والجرائد اليومية

وعسى ان يعتني اولادهُ بجمع كل ما كتبهُ وتنقيحهِ وطبعهِ ثانية في مجلدات منتسقة تعميماً لنفعهِ وتخليداً لذكرهِ